عبد الملك بن مروان

القاسم المشترك بين عظماء الرجال أو النساء هو تلك النفحات الخفية التي تتشكل على صور عجيبة مختلفة ... فهي عند فلان من الناس تبدو على صورة فكر أصيل ... وهي عند فلان آخر تبدو على صورة فن مبدع ... وهي عند فلان ثالث تبرز إلى دنيا العالمين ايمانا بقضية مقدسة تتغير به التوازنات البشرية وترافقه مواقف تبعث على الدهشة وتثير الاعجاب العظيم ...

وقد تتفرع من هذه النفحات وفي ظلها شتلات أخرى حافلة بالخصوبة لا تلبث أن تصبح أشجاراً باسقة مثقلة بالجنى حالية بأروع الأشكال والألوان . والواقع أن كل واحد من هؤلاء العظماء لا يلبث بعد سنين قليلة أو كثيرة حتى يترك من ورائه دوياً ترتج له الأسماع وتخفق له القلوب تماماً كما قال شاعرنا المتنبي :

وتركك في الدنيا دوياً كأنما

تداول سمع المرء أغله العشر

****

وإذا كانت العظمة حصيلة شخصية متسقة الجوانب متكاملة الصفات موحدة الخصائص فإن العظيم الذي نعرض اليوم لحياته يختلف عن غيره من العظماء الذين شاركوه قبله أو بعده في صنع التاريخ البشري .

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

أنه عبد الملك بن مروان خامس الخلفاء الأمويين والمؤسس الثاني للدولة الأموية .

وقد وصف عبد الملك نفسه أذ خطب يوماً يقارنها ببعض من سبقه من الخلفاء فقال : " أما بعد ، فإنه كان قبلي من الخلفاء يأكلون من المال ويؤكلون ، وأني والله لا أداوي هذه الأمة إلا بالسيف ، ولست بالخليفة المستضعف (يعني عثمان) ، ولا الخليفة (يعني معاوية) ، ولا الخليفة المأمون (يعني يزيد بن معاوية) .

أيها الناس إنّا نتحمل منكم كل أمر ما لم يكن عقد راية أو وثوباً على منبر . هذا عمرو بن سعيد حقه قرابته وابنه ، قال برأسه هكذا ، وقلنا بسيفنا هكذا . وقد أعطيت الله عهداً ألا أضع القيد في عنق أحدهم إلا أخرجته صعداً ، فليبلغ الشاهد الغائب .

****

هذا هو عبد الملك بعد أن أصبح خليفة للمسلمين بعهد من أبيه مروان . لكن عبد الملك لم يكن على هذه الصورة في صباه وفتوته وشبابه الأول حتى اكتمال رجولته . لقد نشأ نشأة اسلامية منذ صغره ، وكان أول ما شاهده بعد أن بدأ يعي ما حوله من الوقائع والأحداث عام ٣٦ هـ مجد الدولة الإسلامية وسيادتها . تأثر بأعمال عمر بن الخطاب وسيرته وتتلمذ على يد عثمان ، فنشأ تقياً ورعاً قارئاً للقرآن عاملاً بتعاليمه مكباً على العلم.

قدر له وهو بعد فتى طري العود أن يتردد على مجالس العلماء والفقهاء محفظ عنهم ... حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة وتلقى الثقافة العربية الاسلامية فجمع في صدره شعراً كثيراً وخطباً عديدة كما عرف أيام العرب وأحاط علماً بأمثالها. وكان له من ذكائه الفطري ، وقوة أخلاقه ، وشدة رجولته ، وكمال مروءته ما أنطق عمر بن العاص واصفاً له " لقد أخذ أخلاقاً أربعة وترك أخلاقاً ثلاثة : أنه أخذ بأحسن البشر إذا لقي الناس ، وبأحسن الحديث إذا حدثهم ، وبأحسن الاستماع إذا حدث ، وبأيسر المؤونة إذا خولف . وترك مزاح من لا يوثق بعقله ولا دينه ، وترك مجالسه اللئام ، وترك من الكلام كل ما يعتذر منه .".

كان قبل الخلافة رابع أربعة فقهاء في المدينة المنورة التي قضى فيها أربعين سنة تقريباً : وهم سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب .

وقال الشعبي : " ما جالست أحداً الا وجدت لي فضلاً عليه ، ألا عبد الملك بن مروان ، فإني ما ذاكرته حديثا إلا زادني منه ولا شعراً إلا زادني فيه .

****

أما اتقانه للعربية وعلو شأنه فيها فقد روي عن الأصمعي قوله فيه : " أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل : الشعبي وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وابن القرية .".

وكان من حبه للغة العربية أنه أوصى نبيه غير مرة أن يحفظوا لغة العرب وكان يقول : " أنه لا يلي العرب إلا من يحسن كلامهم . وخلاصة القول أنه كان مثالاً حياً للعلم والفضيلة والورع قبل أن يستخلف .

****

لكن علم عبد الملك وسعة محفوظاته وعظيم وقاره وصحة دينه وأخلاص عبادته لم تستطع أن تخفي بوادر الرجولة عنده ومعالم الشجاعة في المواقف الحرجة واقتحامه للأخطار حين تدعو الحاجة إلى مثل هذا الاقتحام. أوليس أنه تولى أمارة المدينة المنورة وهو في عامه السادس عشر ثم ركب بالناس البحر ؟ أو ليس أنه غزا أفريقية تحت لواء معاوية بن حديج السكوني مرتين : مرة عام ٤١ هـ ومرة عام ٤٥ هـ حين بعثه ابن حديج إلى مدينة جلولاء في تونس على رأس ألف رجل ووفق إلى فتحها وهو بعد في عامه التاسع عشر ؟ أو ليس قد غزا بعد ذلك عام ٥٠ هـ بلاد المغرب مع معاوية بن حديج على بعث أهل المدينة فذكر معاوية من كفايته وغنائه ومجاهدته في تلك البلاد شيئاً كثيراً ؟ وهل ننسى أخيراً مشاركته لجيش المسلمين في محاصرة القسطنطينية ؟

هكذا ظهرت بوادر الرجل الفاتح في شخصه في الوقت نفسه الذي عرف فيه بالحفظ والفقه وسحر البيان واعتبر واحداً من الرجال الأربعة المقدمين في المدينة المنورة كما ذكرنا قبل قليل.

****

وتعاقبت الأيام والسنون حتى اقترب من عامه الأربعين حين وضعته الظروف السياسية إلى جانب والده مروان بن الحكم. ومروان هو الذي بويع بالخلافة بعد وفاة معاوية بن يزيد. فكان الساعد الأيمن لأبيه في تلك الفترة الحافلة بالأحداث الخطيرة والتي تعرض فيها حكم الأسرة الأموية لأفدح الأخطار حتى كادت هذه الأسرة تفقد الخلافة وتضيع أمجادها. والواقع أنه كان لآرائه السديدة ولقيادته الحكيمة وحسن معرفته بالرجال وتأتيه للأحداث الأثر الأكبر في تستم أبيه لمنصب الخلافة بعد أن خرج من

المدينة طريداً شريداً لا حول له ولا قوة. هكذا أصبح مروان ، الرجل الذي لم يعد له غد في نظر نفسه وفي رأي الناس السيد الكبير لدولة الخلافة ووريت بني أمية في الملك بفضل ولده عبد الملك.

****

لكن مروان لم يلبث حتى توفي بعد فترة قصيرة في عام ٦٥ هـ وكان قد عهد بولاية العهد قبيل وفاته لولده عبد الملك الذي وجد نفسه أمام دولة مفككة الأركان مصفوفة الجانب طمع فيها الكثيرون من المغلوبين واضطر معها الخليفة لأن يدفع الاتاوة للروم ولأحد المتغلبين في جبال اللّكام " لبنان اليوم ".

وزاد الطين بلة أن عبد الله بن الزبير قد بويع بالخلافة قبل ذلك بعام واحد ودانت له مصر والعراق وخراسان وبعض بلاد السند وبعض بلاد الشام . ووجد عبد الملك نفسه أمام مسؤولية كبيرة لا ينهض لها إلا أعظم الرجال وأشدهم حزماً وامنعهم جانباً وأذكاهم فطرة . فكيف استطاع عبد الملك أن يواجه هذه المسؤولية وأن يزلزل الأوضاع القائمة ويعيد بناء الدولة من جديد . وقد ضاعف من الأخطار في وجه عبد الملك أن جيشه قد انهزم في وقعة " الخازر" أمام ابراهيم بن الأشتر النخعي . وهي أول معركة خاضها أنصاره من أهل الشام بعد توليه أمر الخلافة . كما فقد أبرز القادة في جيشه المؤلف من أربعين رجلاً وفي مقدمتهم عبيد الله بن زياد وحسين بن نمير السكوني وشرحبيل بن ذي الكلاع .

****

لكن عبد الملك لم يكن الرجل الذي تخيفه العقبات ولا تثنيه عن تحقيق غايته الهزائم . فكانت كل كارثة تنزل به تشد من عزمه وتضاعف جهوده . برزت هذه الظاهرة عنده حين قصد مصعب بن الزبير في العراق وقصد مصعب عبد الملك وفصل الشتاء بينهما . ففوجيء عبد الملك بوثوب عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق على دمشق ودعا إلى نفسه بالخلافة فرجع عبد الملك إلى عاصمة ملكه وحاصر عمرو بن سعيد بعد قتال جرى بينهما انتهى بنزول عمرو على شرط عبد الملك بعد أن منحه الأمان.

وفي سنة اثنتين وسبعين تجهز عبد الملك وطلب العراق وسار مصعب يطلب الشام والتقى الجيشان عند الجاثليق مخاضاً معركة حامية انتهت بقتل مصعب وولديه عيسى وعروة وابراهيم بن الأشتر سيد النخع وفارسها ومسلم بن عمرو والد قتيبه بن مسلم الباهلي . واستولى عبد الملك على العراق وما يليه وبعث الأمراء على ولاياته فيه .

وفي العام ٧٣ هـ انتدب عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفي لمقاتلة عبد الله بن الزبير الذي لم يبق له غير الحجاز. فحاصره الحجاج في مكة حصاراً استمر ستة أشهر وسبعة عشر يوماً انتهى بقتله.

هكذا انطلق عبد الملك من نقطة الصفر عام ٦٥ هـ حين تولى الخلافة وكان عرشه مزعزع الأركان وبلغ القمة عام ٧٣ هـ بعد أن قضى على حكم عبد الله بن الزبير . وبذلك أعاد الوحدة الشاملة إلى الدولة العربية الإسلامية في ظل الأسرة الأموية .

****

واستمر عبد الملك يحكم البلاد والعباد بعد ذلك ثلاثة عشر عاماً حيث توفي عام ٨٥ هـ بعد أن ترك وراءه دولة موطدة الأركان سامقة البنيان منيعة الأطراف رفيعة الجناب.

والواقع أن امتياز الرجل العظيم لا يقف عند تحقيقه النصر بل عند قدرته على الأحتفاظ بثمرات نصره المبين . ولذلك لم يكد عبد الملك يطمئن إلى قوة سلطانه حتى بدأ بتحقيق الاصلاحات الداخلية في دولته الفتية . وقد لفت نظره أن هذه الدولة لم تستكمل ركائزها الداخلية التي توفر لها الاستمرار . واستكمال الركائز في نظره يعني تعريب انشطتها كلها . فبادر إلى تحقيق اصلاحين اساسيين : الأول هو تعريب النقود التي كانت حتى ذلك الوقت تضرب عند البيزنطيين . والثاني تعريب الدواوين فألغى اللغة الرومية – اليونانية – في بلاد الشام واللغة الفارسية في بلاد العراق العربي والعجمي . وهكذا انتهى عهد الدولة العربية الاسلامية بالموظفين الاجانب في كل اقطارها . وبفضل هذا الاجراء تعربت أنشطة الدولة كلها واضطر كل ساع إلى الوظيفة أو راغب في الاشتراك في القيام بأي عمل من الأعمال من الاجانب أن يتعلم العربية حتى الاتقان أو يموت جوعاً .

لقد أصبحت اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي يبلغ صاحبها الوظائف والمناصب الرفيعة.

****

كان جديراً بأي رجل غير عبد الملك أن يسكره النصر وتزلزل توازنه القوة فلا يخلو حكمه من الاستبداد الطاغي والعدوان الغاشم . لكن عبد الملك الذي واجه الأرزاء واقتحم الأخطار ، وأدب العصاة ، وأخمد نيران الفتن بقي محتفظاً بتوازنه ، يستخدم السيف حين لا تكون له مندوحة عن استخدامه ، ويلجأ إلى الصفح والعفو حين لا يتعلق الذنب المقترف بأمن الدولة وسلامتها.

ولا عجب في ذلك فإن ما كسبه من العلم وتعوده من العبادة والطاعة لأمر الله عز وجل قد دفعه إلى الفصل بين عنفوان الملك وسلامة الدولة . بدا ذلك حين جاءه مرض الوفاة وشعر باقتراب النهاية فلم يندم على اراقة الدماء في سبيل الحفاظ على وحدة الدولة واستقرارها ولكنه ندم أبلغ الندم على ما يكون قد صدر عنه من الأخطاء وما هرق من الدماء في غير هذا السبيل .

وعندما سئل في مرضه هذا عما يجده في نفسه قال : " أجدني كما قال الله تعالى : " لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم.."

وجد وهو يستعد للقاء ربه أن الدنيا متاع عابر وسلعة رخيصة وأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة . فهو حزين أسيف على ما صدر عنه يطلب القليل من عفو ربه على الكثير من ذنوبه الشخصية . ولكنه حتى الدقيقة الأخيرة من حياته بقي الحاكم الصلب والقائد الذي يقاوم بالسيف كل ما يمس أمن الدولة من قريب أو بعيد .

عبر عن حزنه وأسفه حين قال وقد رفعوه في فراشه بطلب منه : " يا دنيا ما أطيبك ! إن طويلك لقصير ، وإن كثيرك لحقير وإنا كنا بك لفي غرور ".

أما صلابته في الحكم وشدته على كل من يمس امن الدولة وسلامتها فقد عبر عنهما بقوله لولده الوليد ولي عهده : " أذا أنا مت فادع الناس إلى بيعتك ، فمن أبى فالسيف ".

****

ومن حقنا أن نتساءل : كيف تعلم عبد الملك فن الحكم ومتى تخلق بأخلاق الحاكم وهو الذي قض ى ثلثي عمره في المدينة يتابع دراساته العلمية والفقهية والأدبية وهي بطبيعتها توهن من صرامة السلطة وتبعد صاحبها عن أخطاء السياسة ومفاجآتها الدموية ؟ والجواب أنه تلقى درسه الأول وهو بعد صبي صغير من مقتل عثمان بن عفان الخليفة الراشد الثالث فأيقن أن لين هذا الخليفة هو الذي جرأ العامة عليه ودفع المشاغبين إلى الشغب عليه .

وقد روي عنه قوله : " " وما خالف عثمان عمر بن الخطاب في شيء من سيرته إلا باللين ، فان عثمان لأن لهم حتى ركبوه، ولو كان غلظ عليهم جانبه كما غلظ عليهم ابن الخطاب ، ما نال الناس منهم ما نالوا ." ثم تابع يقول : " أني رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس ، أن ذهب اليوم رجل يسير بتلك السيرة " اللينة " أغير على الناس في بيوتهم وقطعت السبيل وتظالم الناس وكانت الفتن ، فلا بد للوالي أن يسير في كل زمان بما يصلحه".

****

هكذا كان عبد الملك في خلافته . كان شديداً حازماً إلى حد اهدار دماء المفسدين الخارجين على القانون .. وكان سمحاً لطيفاً يلجأ إلى الصفح ونسيان المساءة عن كل من غرر بهم من المفسدين . فلا يقبل شفاعة شفيع حين يخرج خارج على الدولة حتى ولو كان من أقرب المقربين اليه . ولعل موقفه من مصعب بن الزبير أن يكون نموذجاً لأخلاق الحاكم عنده. كان مصعب قبل خروجه على الأمويين مشايعاً لأخيه عبد الله بن الزبير من أقرب الناس إلى عبد الملك تربط بينهما وشائج صداقة حميمة ثم تحولت هذا الصداقة بعد ذلك فاذابها عداوة قضت بأن يموت أحد الرجلين بيد الآخر. وأنهى عبد الملك حكايته مع مصعب قائلاً : ولكن هذا الملك عقيم : " ليس أحد يريده من ولد ولا والد إلا كان السيف ".

****

والجدير بالذكر أن لعبد الملك بن مروان مزايا قيادية بوأته مكانته من التاريخ :

١) كان لا يستبد برأيه فهو يستشير من حوله في كل كبيرة وصغيرة .

٢) أنه كان يحسن اختيار الرجال النابهين.

٣) أنه كان يعرض الصلح ويقدم رغبته في السلام قبل الاقدام على القتال.

٤) أنه كان لا يألو جهداً في استمالة خصومه وبذل الوعود السخية لهم .

٥) أنه كان يضع ثقته كاملة في رجاله.

٦) أنه كان ذا رأي سديد بصيراً بالحرب شجاعاً بالسيف .

وخلاصة القول أن مكانته الرفيعة في التاريخ تتجسد في الصفات التالية :

- فهو خليفة الأدباء والعلماء وعالم الخلفاء والأدباء كما حفظ الدولة وثبت أركانها وعمل على استعادة هيبة الدولة في كل المناطق ، ووسع حدودها وأخيراً خلص الدولة العربية الاسلامية من الاستعمار الاقتصادي بتعريب النقود ومن الاستعمار الغني والادارة والفكري بتعريب الدواوين . وبتعبير آخر كان أحد عمالقة التاريخ .